﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾ [الحديد: 19]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

نـور الصَّدقة وثمرة الإيمان بين وعد الأجر ووعيد الجحيم

لمّا ذكر اللّهُ تعالى في الآية السّابقة قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾؛ مبيِّنًا سُبحانه أنَّ الصَّدقة كالبذر الذي هو من أعظم وجوه الرِّبح وأبهجها؛ إذ يُثْمِر أضعافًا مضاعفة؛ أتبع ذلك ببيان الباعث الأعظم على الإنفاق ترغيبًا فيه، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[1]، فجمع بين التَّرغيب بوعد الأجر، والنّور لأهل الصِّدق والإيمان، والتَّرهيب بذكر مصير أهل الكفر والتَّكذيب إلى الجحيم؛ ليقوى باعث المؤمن على البذل، ويزداد شوقه إلى ما أعدَّ اللّه تَعالى للصّادقين.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ﴾: جمع سلامة، مفرده: (صِدّيق) على زنة (فِعّيل)، وهو من صيَغِ المبالغة، وجذره اللُّغويُّ (صدق)، ومنه: الصِّدق، وهو نقيض الكذب، ومصداق الأمر، بمعنى: حقيقتِهِ، ويوصف بمثل هذا الوصف مَن صدَّقك في حديثك، والأصل في الصّاد والدّال والقاف هو القوَّة في الأقوال وغير الأقوال[2]، ومنه: صيغة (صِدّيق)، وهي صيغة تدلُّ على عمق الإيمان ورسوخه، فهو

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 284.

(2) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (صدق).

إيمان متين صَلْب لا تزعزعه الفتن، ولا تُضْعفه الشَّدائد، ومعنى ﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ في الآية محلِّ التَّفسير: الذين بالغوا في الصِّدق[1]، وهو تصديق الرُّسل.

2) ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾: جمعٌ مكسَّر، مفرده: (شَهيد)، وجذره اللُّغويُّ (شهد)، ومنه: الشَّهادة، وهي الخبر القاطِعُ والمُعاينَة، يقال: شهِدَ يشهَدُ شهادةً، والمشهَدُ: هو محضر النّاس، وشهِدَ الشَّيءَ؛ إذا حضرَهُ، وعايَنَهُ، والشَّهيد: هو من يُقْتَل في سبيل اللّه تعالى، قال قوم: سُمّي بذلك؛ لأنَّ ملائكة الرَّحمة تشهدهُ، أي: تَحْضُرُه، والأصل في الشّين والهاء والدّال أنْ يكون دالًّا على الحُضور والعلم والإعلام[2]، ومعنى ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ في الآية: هم الذين يُقرّون بالإيمان باللّهِ ﷻ على أنْفُسِهم، وهم أيضًا النَّبيّونَ الذين يَشْهَدون على أُمَمِهِم[3].

3) ﴿أَصْحَٰبُ﴾: الأصحاب: جمعٌ مكسَّرٌ، مفرده: (صاحِب)، وجذره اللُّغويُّ من (صحب)، والأصل في الصّاد والحاء والباء يدلُّ على المقارنة والمقاربَة، وكلُّ شيءٍ يلائِمُ غيرَه؛ فقد استَصْحَبَه[4]، والصّاحب: ما يتَّصف بصفةِ المُلازَمَة إنسانًا كان أو حيوانًا، أو غير ذلك، وقد تكون المصاحبةُ بالبدَنِ - وهي الأصل - أو بالعناية والهمَّة، والصُّحبة أصلها: الاجتماع، طال زمَنُها أو قَصُر، ولا يُقال في العُرف إلّا لِمَن كَثُرَت مُلازَمَتُه، ومعنى ﴿أَصْحَٰبُ﴾ في الآية: هم الذين كفروا، وكذَّبوا بآيات اللّهِ تَعالى ورُسُلِه عنادًا، الملازمون للجحيم المقيمون فيها بلا مَخْرَجٍ ولا مَهْرَبٍ[5].

4) ﴿ٱلْجَحِيمِ﴾: اسمٌ مِن أسماء النّار، والجذر اللُّغويُّ منه: (جحم)، ومعنى الجحيم: النّار المتأجِّجة الشَّديدة اللهب، والأصل في معناها: أنَّها العظيمةُ الحرارةِ الشَّديدةُ، فإنَّ الجاحِمَ ما كان شديدَ الحرِّ، ومعناهُ المحوريُّ للمادَّةِ: "بُؤرَةٌ متوقِّدةُ الأثناءِ ... مع غِلَظِه في نَفْسِه... ومنه: الجحيم: كلُّ نارٍ عظيمةٍ في مهواة"[6]، و"الجحيم: شدَّةُ توقُّدِ النّار

(1) الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ص: 1069.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (شهد).
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 192.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صحب).
(5) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1297.
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جحم).

وإضْرامِها، وجَحَمْتُ النّارَ: أضرَمْتُها، وزدتُ في توقُّدها... أعاذنا اللّهُ منها"[1]، ومَعنى الجحيم في الآية: النّار[2]، وهو كذلك معناها في جميعِ القرآن الكريم.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الـصِّـدّيـقـون والـشُّـهـداء في الأجـر والـنّـور والـكـافـرون في ظلمات الجحيم والشُّرور

يَذْكُر اللّهُ تَعالى الصِّدّيقين، وهم الذين صدَّقوا اللّهَ تَعالى ورسلَهُ ﷺ إيمانًا راسخًا وتصديقًا جازمًا، ويذكر الشُّهداء، وهم الرُّسُل الذين يَشهَدون على أُمَمِهم بالتَّصديق والتَّكذيب، ويشهدون على أنفُسِهم بما قدَّموا من طاعةٍ أو مَعْصيَةٍ، أو هم المؤمنون الذين يَشْهَدون لأنبيائهم بتبليغِ الرِّسالَة، وأداء الأمانةِ، أو هُم الشُّهداء المَقْتولونَ في سبيل الله، الذين اصطَفاهم اللّهُ تَعالى بعلوِّ المنزلة، وكرامة المثوبَةِ؛ لَهُم أجرهم عند ربِّهم، فإنَّ ثوابَ أعمالِهم يكون مضاعفًا، ولهم نورُهُم الذي يَسْعى بين أيديهِم على الصِّراط، جزاءَ إيمانِهم الصّادق في الحياةِ الدُّنيا[3]، أمّا الذين كَفَروا، وكذَّبوا بآيات اللّهِ تَعالى؛ فلَيْسَ لَهُم مِن مآل إلّا الجحيم، ولا عاقبَة لَهُم سِوى العذابِ المُقيم.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

ظِـلالُ التَّمكين ورسائلُ الإرجاءِ وبشائرُ الارتقاء إلـــى مـقـام الصِّدّيقين

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ للعطف، والجملة معطوفة على قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ من الآية السّابقة، فإذا كان الإنفاق في سبيل الله ممّا يُرَدُّ على المنفِق أضعافًا مضاعفة، وأجرًا كريمًا، فإنَّ هذا الإنفاق لا يزكو، ولا يطيبُ، ولا ينال ذلك الأجرَ الكريم إلّا إذا صدر عن إيمانٍ راسخٍ باللّه تَعالى

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جحم).
(2) الأبياري، الموسوعة القرآنية: 11/ 292.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 479.

وبرسوله[1]، وفيه إرجاء رفيق، وإطماع بديع لكلِّ مؤمن أن يلحق برتبة الصِّدّيقين[2]؛ إنْ هو تمسَّك بهذه المعاني، واجتمعت فيه حقائقُها.

دلالةُ التَّعبير بالموصولِ وصلتِهِ في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دون (المؤمنون):

الإيمانُ الموصوفُ بالفعل علّةٌ لرتبة الصِّدّيقيّة

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بالموصولِ وصلَتِهِ في قول اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾، بدلًا من التَّعبير بالوصفِ (المؤمنون)؛ للدَّلالة على أنَّ الصِّلة هي العلَّةُ والسَّبب في الحُكْم الذي صاروا إليه، فها هم الذين تحقَّق منهم الإيمانُ بالله تَعالى ورسله ﷺ، استحقّوا أن يوصفوا بأنَّهم الصِّدّيقون[3]، ولو قيل: (والمؤمنون)؛ لكان محضَ وصفٍ ذاتيٍّ لهم من غير تعرُّض للسَّببِ الذي نالوا به هذه الرُّتبة، فلا يُشْعِر بالفعل الذي أدَّوهُ حتّى صاروا به في هذه المنزلَةِ الرَّفيعَةِ.

دلالَةُ التَّعبير بالاسمِ الموصول (الَّذينَ) دونَ (مَن):

تعظيمٌ لِشأن صَحابَته المَعهودين، وارتقاؤُهم إلى مقامِ الصِّدّيقين

التَّعبير بالاسم الموصول (الَّذينَ) بدلًا من (مَن) في قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾؛ اعتناءً بشأنِهم، وإشعارًا بأنَّهم مَعْلومونَ مَعْهودونَ في سياق الخطاب، وكأنَّ الآية تشير إلى أولئكَ الصَّفوة الذين عاصَروا النُّبوَّة، وتشرَّفوا بصحبة الرَّسول ﷺ[4]، فاستقرَّ الإيمانُ بالله تَعالى ورسله في أعماقهم، فارتقوا إلى مقامِ الصِّدّيقين.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالفِعْلِ الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾:

ثباتُ الإيمانِ وكمالُه فيهم

الفِعْلُ الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾ يَشي بثباتِ المَعْنى ورُسوخه، لا على مجرَّد وقوعه فحسبُ، بل على كماله وتمامه، فهُم الذين لَم يُساوِرهُم شكٌّ حين بلَّغهم الرُّسلُ رِسالاتِهم، ولم يَتَلَعْثَموا في يَقينِهم لحظةً واحدة،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 284.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 164.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 191.
(4) المظهري، تفسير القرآن: 9/ 199.

بل كانوا سبّاقين إلى الإيمان، ومثالًا للمُبادِرين إلى الحقِّ بلا تردُّد، حتّى خَتَموا حياتَهُم بالشَّهادة في سبيلِ اللّهِ تَعالى[1].

دلالةُ تعديةِ الفِعْلِ ﴿ءَامَنُواْ﴾ بالباءِ:

تَـصـديـقٌ يملأ القلوبَ يقينًا

عُدّيَ فعلُ الإيمانِ بباءِ التَّعدية في قوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ﴾؛ إيذانًا بأنَّ المطلوبَ ليسَ مجرَّد قبولٍ ذهنيٍّ فاترٍ، بل هوَ تصديقٌ جازِمٌ راسِخٌ، يملأ أرجاءَ القَلبِ يقينًا وطمأنينَةً، تصديقًا وإيمانًا شامخًا لا يتَزَعْزَع، واستحضارًا لعظمَتِه وجلالِه وربوبيَّته، وتصديقًا برسولِه لا يُداخله شكٌّ، ولا يعتريه ارتيابٌ في صِدْقِ ما يبلِّغ عن ربِّه، إيمانًا يُرَفْرِفُ في الأرواحِ عُلوًّا، ويقودُ العَبْدَ في مدارج السُّموِّ والخضوعِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالاسمِ الأحسَنِ (الله) دون لفظ (الرَّبِّ):

تعظيمٌ يَملأُ القلوبَ مهابةً، ويَستَجمِع معانيَ الخُشوعِ والخضوعِ

لم يأتِ النَّظمُ القرآنيُّ: (آمنوا بربِّهم)، بل اختيرَ الاسم الأحسَنُ (الله)، فقال سُبحانَهُ: ﴿ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ﴾؛ للإشارَةِ إلى المَقام الأعلى، وتعظيمًا للمعبودِ الحقِّ الذي له الملكُ كلُّه، والجلالُ كلُّه، والإكرامُ كلُّه[2]؛ ليَمْلَأَ القُلوب مهابَةً، ويَستَجمِعَ في النُّفوسِ معانيَ التَّعظيمِ والخشوعِ والخُضوع.

دلالَةُ العَطْفِ بالواوِ في قوله: ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾:

لا إيمانَ بالله تعالى إلّا بالإيمانِ بالرُّسُلِ ﷺ جميعًا

الواو في قوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ عاطفَةٌ الرُّسُلَ على الاسم الأحسَنِ (الله)[3]، وفي ذلكَ بيانٌ أنَّ الإيمانَ الحقَّ لا يقتصر على الإقرار باللّهِ تَعالى وحدَه، بل لا يكتملُ إلّا بالإيمان برسلِه جميعًا؛ لأنَّهم وسائطُ هدايَتِه ومُبَلِّغو شرعِه، وفي هذا العطفِ أيضًا إبرازٌ لمَقامِهِم ورفعَة شأنِهِم، وتأكيدٌ لوحدَةِ الرِّسالات وتَكامُلِها.

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 321.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 284.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 468.

سِرُّ التَّعبير بالرُّسلِ دونَ الأنبياءِ:

النَّبيُّ أعـمُّ مِنَ الرَّسول وأشْمَلُ

اختير لفظُ الرُّسُل دون الأنبياء في قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾، فيه إشارةٌ إلى جانبِ التَّبليغ والدَّعوة؛ إذِ الرَّسول مَن أوحيَ إليه بشَرْعٍ، وأُمِرَ بتبليغِه، والإيمانُ بالرُّسل يتضمَّن تصديق ما جاؤوا به من شرائعَ مُبلَّغة، ممّا يجعل إيمانَ المؤمنين إيمانًا شاملًا لجميع الرُّسل مِن غير تفريق، ولأنَّ المقامَ مقامُ بيانِ التَّصديق المقرونِ بالاتِّباع والانقيادِ، وهو إنَّما يتحقَّق بقبول التَّبليغ والانقيادِ للشَّرع المنزَّل، وهذا لا يكونُ إلّا مع الرُّسُلِ الذين بُعِثوا بالتَّبليغ، ولذا ناسبَ المقامُ أن يُخَصّوا بالذِّكر.

دلالَةُ الجَمْعِ في قولِهِ: ﴿وَرُسُلِهِۦٓ﴾:

الإيمانُ بمحمَّدٍ ﷺ يَـقْـتَـضي الإيمانَ بجميعِ الرُّسُل

جيءَ بلفظ الرُّسُل جمعًا في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾؛ لأنَّ الإيمان بمحمَّد ﷺ يستلزم الإيمانَ بكلِّ مَن سبقَهُ مِنَ الرُّسل[1]، إيمانًا واحدًا تتكامل فيه رسالاتُ الأنبياءِ عليهم السلام، ولا ينفصل بعضُها عن بعضٍ، ولذا كان مَنْ أنكر رسالةَ واحدٍ منهم كَمَن أنكر رسالةَ جميعِهم، ويدلُّ لذلك قولُ الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء: 105]، فجعلهم اللهُ تَعالى مكذِّبينَ لجميع الرُّسلِ مع أنَّه لم يكُن يوجد رسولٌ غيرُهُ حينَ كذَّبوهُ[2]، والتَّعبير بالرُّسل جمعًا فيه أيضًا دلالةٌ على الإيمانِ بهم جميعًا من أوَّلهم إلى خاتمهم[3].

دلالة الإضافة في قوله: ﴿وَرُسُلِهِۦٓ﴾:

شـرفُ النِّسبَةِ الإلـهيَّةِ تفيض جـلالـةً ورفـعـة وعلوَّ مقامٍ

في إضافةِ لَفْظِ الرُّسل إلى الضَّمير العائد إلى اللهِ سبحانه في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾ إشعارٌ بجلالَةِ النِّسبَةِ وعُلوِّ المَقام[4]، فهُم رُسُلُه الذين اصطفاهم، واختارهم، وحمَّلهم

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 265.
(2) ابن عثيمين، شرح ثلاثة الأصول وأدلتها، ص: 97.
(3) القنوجي، فتح البيان: 13/ 414.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 284.

أمانةَ وحيه، وبهم أشرقَ نورُ هدايته في الآفاق، فالإضافةُ هنا ليسَت مجرَّد صلةٍ لغويَّة، بل هي رابطةُ تَشْريف؛ إذ هُم مَنْسوبونَ إليهِ تعالى، مُشرَّفون برسالَته، مكرَّمون بحَمْلِ كَلِمَته.

سرُّ الاكتفاءِ في متعلَّق الإيمانِ بذِكْرِ الله تَعالى ورسلِهِ دون بقيَّة أركان الإيمانِ:

لـبُّ الإيـمـانِ الـجـامـع هو الإيـمـانُ المطلق بـالـلـهِ تَـعـالى ورسلِهِ ﷺ

اكتُفِيَ في متعلَّق الإيمان بذِكْرِ الله تَعالى ورسله ﷺ دون سائر أركان الإيمانِ؛ لأنَّ المقصودَ هنا إبراز لبِّ الإيمان، وأصلِهِ الجامع، فمَن آمن باللهِ تَعالى إيمانًا مطلقًا، وآمن برسُلِه جميعًا تصديقًا شاملًا لا يَعْتَريهِ شكٌّ ولا نَقْصٌ، فقد استحقَّ بذلك وسام الصِّدّيقين[1]، ولأنَّ مَن آمَن باللّه تعالى ورسلِهِ ﷺ، فإنَّه يُؤمن بجميع ما جاءَ عنهم، ومِن ذلك: الإيمانُ بكتب اللّه المُنَزَّلة والملائكة واليوم الآخرِ والقدَرِ خيرِهِ وشرِّهِ، فكان ذكر الإيمان باللّه ورسلِهِ مستلزِمًا الإيمانَ ببقيَّةِ أركان الإيمانِ.

سِرُّ فصلِ جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ عمّا قبلَها:

بـيـانُ ارتـبـاطِ الـصِّـدّيـقـين بـالـمـؤمـنـينَ الخالصينَ؛ إذِ التَّصديقُ ثمرَةُ الإيمانِ

فُصِلَ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾، عن قوله سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾؛ لِما بين الجملتين مِن كمال الاتِّصال، وآية ذلك أنَّ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الموصولِ (الَّذينَ)[2]، فكأنَّ الثّانيةَ شرحٌ وبيانٌ لجَوْهَرِ الأولى، فهي في قوَّة الوصف الكاشف لحقيقتهم، تُبْرِزُ أنَّ الإيمان الخالصَ باللّهِ ورسلِهِ يُثْمِرُ مرتبةً عُلْيا هي مرتبة الصِّدّيقين، وكأنَّ الآيةَ تُعْلِنُ في سياقٍ مُتَّصِلٍ أنَّ الشُّهداء والصِّدّيقين هم المُؤْمِنون حقًّا[3].

دلالَةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الدّالِّ على البُعْدِ:

بُـعْـدُ مرتبَتِهِم وعُـلـوُّ مقامِهِم وتـمـام جَـزائِـهِم وكمال إكْرامِهِم

جاء التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الدّالِّ على البُعْدِ[4]، في

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 321.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 182.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 253.
(4) الأزهري، شرح التصريح على التوضيح: 1/ 146.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾؛ للإيذانِ بعلوِّ المقام، وسموِّ المنزلةِ، والتَّنبيه إلى بُعْدِ منزلتهم في الفَضْلِ، وكمال جَزائِهم[1]، فكأنَّهم لرِفْعَتِهم عن مداركِ الأبصار أبعَدُ مِن أن يُشار إليهِم بالقرب، وإنَّما يُشار إليهم بلَفْظٍ يُجِلُّهم، ويعظِّم شأنَهُم.

بلاغةُ أُسلوبِ القَصْرِ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾:

في قول اللهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾ أسلوبُ قصرٍ بطريقِ تعريفِ جُزْأيِ الجملةِ، أي: هم الصِّدّيقون لا غيرهم، لا يُشارِكُهُم في هذا المقامِ أحدٌ سِواهم، فهُم المخصوصون بوسام الصِّدّيقيَّة، المنفردون بشرف هذا اللَّقب الرَّفيع[2]، لا أولئك الذين كذَّبوا بعضَ الرُّسل، وانحرفوا عن سواء السَّبيل، وفي ذلك إبطالٌ لأنْ يُعَدَّ أهلُ الكتاب من زُمْرَة الصِّدّيقين؛ إذ لا يُغْنيهِم تصديقُهم رُسُلَهُم؛ ما داموا قد أعرضوا عن رسالةِ محمَّد ﷺ[3].

قصر الصِّدّيقيَّة على أهل الإيمان ونفيها عن أهل الانحراف والبهتان

سرُّ التَّعبير بوصفِ الصِّدّيقيَّة:

اختير وصفُ الصِّدّيقيَّة؛ لأنَّها ذروةُ مراتبِ الإيمان، وغايةُ درجات الإيقان؛ إذ الصِّدّيق مَن استوى ظاهره وباطنُه، وصدَقَ في سريرته، كما صدَقَ في علانيَّته، لا يُساوِمُ على الحقِّ، ولا يلتفت إلى رُخَصٍ تُدَنّي، ولا تأويلاتٍ تُلَيِّن، بل يَحْمِلُ أمْرَ ربِّه على الأشدِّ والأكمل[4].

في الصِّدّيق توخُّد السَّريرة والعلانيَّة وترك الرُّخص والتَّأويلات

دلالة (أل) في ﴿ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾:

(أل) في لفظة ﴿ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾ عهديَّةٌ مشيرةٌ إلى جَمْعٍ مِن ذوي الصِّدق الكثير، والتَّصديق الثّابت، ويجوز أن تكون (أل) دالَّةً على الكمالِ، والمقصود بها بيانُ أنَّهم مِن هذا الجنسِ الكاملِ في بابه، أي: مِن جنس مَن عُرِفوا بالمبالغة في الصِّدق، وتحقَّقوا به أعظم

الإشارةُ إلى جمعٍ مِن ذوي الصِّدق الثّابت السّابقين في الإسلامِ

(1) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 618.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 285.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17397.
(4) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 540.

تحقُّق، فهُم المبالغون في الصِّدق قولًا واعتقادًا وعملًا لا تشبيهًا[1]، فهُمُ الكاملونَ في الاتِّصافِ بالصِّدّيقيَّةِ؛ لأنَّهم صدقوا في أنفُسِهم، وصدقوا مَعَ غيرِهم، وصدَّقوا ما قامَتِ البيِّنَةُ على صِدْقِهِ.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ دون (الصّادقون):

المؤمن المصدِّق باللهِ ورسلِه بالغُ الصِّدْقِ في القولِ والعَمَلِ جميعًا

جاءَ التَّعبير بـ ﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ دون (الصّادقون)؛ والصِّدّيقون جمعُ: صدّيق، وهوَ على وزنِ (فعّيل)؛ وهو وزنٌ للمُبالغَةِ في الفعل، فيقال: رجلٌ صِدّيق، أي: كثيرُ التَّصديقِ، ورَجُلٌ سِكّيت، أي: كثير السُّكوت، فاشتقَّ الاسم؛ ليجسِّد الغايةَ في الصِّدق، ويعبِّر عن المؤمن الذي لا يقف عند حدِّ التَّصديق المعتاد[2]؛ إذِ الصّادِقُ: مَن تَخَلَّص من شوائب النَّفس، بخلاف الصِّدّيقِ، فهو أخصُّ؛ إذ هوَ الذي تخلَّص من شوائب النَّفْسِ ومِن شوائب الغَيْريَّة، فكلُّ (صدّيق) صادقٌ ومُخْلِصٌ، وليس كلُّ صادقٍ يبلُغُ منزلةَ الصِّدّيق[3].

بلاغَةُ التَّعْبير بالجملة الاسميَّة ﴿هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾:

وصفٌ راسِخٌ ووسامٌ خالِدٌ لا يعتريه انقطاعٌ، ولا يَمَسُّه زوالٌ

اختار البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالجملة الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ دون الفعليَّة؛ إيذانًا بثبوت وصف الصِّدّيقيَّة لَهُم رسوخًا لا يزول، ودوامِها دوامًا لا يحولُ، فكأنَّ هذا الوسامَ العليَّ قد صار لهم وصفًا ذاتيًّا لا يطرأ عليه تبديلٌ، ومَنْقَبَةٌ خالدَةٌ لا يَعْتَريها زوالٌ.

سِرُّ التَّعبير بالواوِ في قوله: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾:

استئنافٌ يُبيِّن مقام الشُّهداء عند ربِّهم

وُصِلَ قول الله تعالى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ بما قبلها؛ لأنَّها سيقت كلامًا مُستأنفًا[4]، فالواوُ للاستئناف، ولا ارتباطَ للجملةِ بما قبلَها لفظًا - إذ هيَ جملة من المبتدأ والخبر - وإن كانت في المعنى

(1) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 461.
(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 126.
(3) إسماعيل حقي، روح البيان: 9/ 368.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 191.

متعلِّقَةً بما قبلَها من جهة المقام[1]، وكأنَّ الآية تَبْتَدِئُ تقريرًا جديدًا يخصُّ الشُّهداء ومكانتَهُم، وتُظْهِرُ علوَّ شأنِهم ورفعةَ منزلتهم عند ربِّهم سُبحانَهُ.

الرُّسلُ شهداءُ على الأُمَمِ، وأجرُهُم عند ربِّهِم عظيمٌ

والواو الاستئنافيَّةُ هنا تفتح معنًى جديدًا، فمن قطعها عمّا قبلها، قال: إنَّ المراد بالشُّهداء هم الرُّسل؛ استنادًا إلى قوله جلَّ شأنه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: 41]، ثمَّ أعقب ذلك ببيانِ ما أعدَّ لهم من أجر عظيم[2]، ويَحْتَمِل أن يكونَ قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ عطفًا بديعَ النَّسق على ما قبله، فيغدو المعنى: أولئك هُم الصِّدّيقون، وأولئك هُم الشُّهداء عند ربِّهم، فيجتَمِعُ لهم شرف الصِّدّيقيَّة ورفعةُ الشَّهادة، ويتجلّى وعد الحقِّ سبحانه في قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ جزاءً جامعًا للصِّدّيقين والشُّهداء[3].

دلالَةُ تقديم ﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ على ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾:

تصدُّر الصِّدّيقين وتوالي مراتِبِ الكِرام في سُلَّم الفَضْلِ:

الصِّدّيقون أعلى منزلةً مِن الشُّهداء؛ ولذلك قُدِّموا هنا في قول الله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾، وآية ذلك: أنَّ الله تعالى قال في موضع آخر: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء: 69]، فكان الصِّدّيقون هُم الذين يَلونَ الأنبياءَ في المنزلة، والشُّهداء يَلونَ الصِّدّيقين، والصّالحون يلون الشُّهداء، فجاء التَّقديم مُراعًى فيه ترتيبُ الفَضْلِ، وعلوِّ المقام[4].

سرُّ التَّعبيرِ بوصفِ الشُّهداء دون الشُّهود أو الأشهادِ:

اصطفاءٌ لِمَن بذَلَ روحَهُ في سبيلِ اللهِ سُبْحانَهُ

جاءَ التَّعبير بوَصْفِ الشُّهداء دون الشُّهود أو الأشهاد؛ لأنَّهُ لفظٌ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 478.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 526.
(3) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 126 - 127.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 253.

مُشْرِق بالدَّم الطّاهر والرّوح الباذلة؛ إيذانًا بأنَّهم الذين استُشهِدوا في سبيلِ اللّهِ تَعالى[1]، فصاروا أحياءً عندَ ربِّهم يُرْزَقون، لا مجرَّد شهودٍ يؤدّون شهادةً عابرة، ولا أشهاد يُستَدعون لموقفٍ عارضٍ.

ولفظ (الشُّهداء) جامعٌ بينَ مَن رُفِعَت شهادَتُهم بدِمائِهم الطّاهرة، فصاروا رمزَ الفداءِ والوفاء، ومَن يَشْهَدُ لنفسِه عند ربِّه بالإيمان[2]، فلا تَقْتَصِر الدَّلالة على القَتْلِ في سبيلِ اللّهِ تَعالى، بل تتَّسع لتشْمَلَ مَن حاز شهادةَ الحقِّ بحياته وعقيدته.

دلالة التَّعبير بالاسميَّة ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ دون الموصولِ وصِلَتِه:

آثَرَ النَّظم القرآنيُّ التَّعبيرَ بالاسم ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾، دون أن يَرِدَ التَّعبير بنحو: (والذين استشهدوا)، كما في قوله تعالى قبلُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لأنَّ الاسمَ هنا يُشْعِرُ بإضْمار المعنى وتمكينِه، فالصِّدّيق لا يكتَسِبُ عرق الصِّدّيقيَّة إلّا بالتَّأهيل لمرتبة الشَّهادة[3].

لا ينال عِرقَ الصدّيقيَّة إلّا مَن تأهَّل لذروة الشَّهادة

معنى (أل) في لفظ ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾:

(أل) في لفظ ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ مِنْ قول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ﴾ للعَهْدِ، والمعنى: أنَّهم الشُّهداء المَعْروفونَ، وهُم الذين استُشهدوا في سبيلِ الله تعالى، أو هُم الأنبياءُ، أو هُم جميعُ المُؤمنين[4].

استغراقيَّةٌ بين الشُّهداء والأنبياءِ وعمومِ المؤمنينَ

بلاغَةُ المَجازِ بالحَذْفِ في قولِه: ﴿هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ مجاز بالحذف، والتَّقدير: هُم عندَ اللّهِ تَعالى بمنزلة الصِّدّيقين والشُّهداء[5]؛ ليبيِّن أنَّ المؤمنين الحقيقيّين هُم عندَ الله سُبحانَهُ في مقام الصِّدّيقين

المؤمنونَ الكاملونَ عند الله تعالى في ذُرا الصِّدّيقين وفي عُلا الشُّهداء المُكَرَّمين

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 540.
(2) النحاس، إعراب القرآن: 4/ 240.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 285.
(4) السمعاني، تفسير القرآن: 5/ 374.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 478.

الذين صَدَقوا، وصدَّقوا، وربّوا إيمانَهُم، وفي مقامِ الشُّهداء الذين بَذَلوا أنفُسَهُم في سبيلِ اللّهِ ﷻ.

دلالة التَّعبير بالظَّرفيَّةِ ﴿عِندَ﴾:

بيانُ شرفِ المقامِ ورفعةِ المنْزِلَة

قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ظرفٌ للشُّهداء[1]، يحملُ في طيّاته دلالةً عميقة على التَّمكُّن والثُّبوت في مقام رفيعٍ ومهيب، وهو ظَرْفٌ وارد ليزيدَ الأمرَ تعظيمًا وإجلالًا[2]، فالظَّرف هنا مجازٌ مستعمَلٌ في معاني العنايَة والحَظوة والخُصوصيَّة[3]، وفيه بيانُ عظمةِ المرتبة التي يحلُّ بها الشُّهداء، ويُظْهِرُ قربَهُم الدّائمَ مِنَ اللّه جلَّت قُدْرَتُه.

سرُّ التَّعبير بلفظ الرَّبِّ دون الاسم الأحسَنِ (الله):

إحسانُ اللهِ تعالى إليهم برُتْبَةِ الشَّهادَةِ العاليَةِ وعظيم القُربى السّاميَة

استعمالُ اسم الرَّبِّ دون الاسم الأحسَن (اللّه)، في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، فيه إظهارُ القُرْبِ والخُصوصيَّة، فهو ربُّهم الذي أحسَنَ إليهم، وأكْرَمَهُم بمنزلةِ الشَّهادة، وأفاض عليهم برحمَتِه ورعايته الخاصَّة[4].

دلالَةُ الإضافة في قوله: ﴿رَبِّهِمْ﴾:

تشريفٌ لَهُم ورفعَةٌ لمنْزِلَتِهم

أضيفَ اسمُ الرَّبِّ إلى ضميرِ أهل الإيمان في قوله: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ تشريفًا للمؤمنين، وإبرازًا لعلوِّ مَنْزِلَتهم وقُرْبِهم من اللّه سُبحانَهُ، فتكون الإضافةُ وسيلةً لتكريمهم، وإظهارِ رفيعِ قَدْرِهِم عندَ المَوْلى الكريم.

بلاغةُ تعدُّد الموقع الإعرابيِّ لقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾:

إظهارُ ثمرات نعوتِ الكمال وبهاءِ الأجر والنّور العزيزِ المنالِ

في تعدُّد الموقع الإعرابيِّ لقولهِ تَعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ بيانٌ بليغٌ؛ إذ تُقرأ جملة من مبتدأٍ وخبرٍ في محلِّ رفع، وتكون خبرًا ثانيًا للموصول، أو أنَّ الخبرَ هو الظَّرف ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾

(1) العكبري، التبيان: 2/ 1209.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 285.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 398.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 285.

وما بعده يُرفعُ على الفاعليَّة، ويَتَعَلَّق الضَّمير الأوَّل بالموصول على الوجهِ الأوَّلِ، أمّا الأخيران؛ فمتعلِّقانِ بالصِّدّيقين والشُّهداء، وتأتي عبارة: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾، في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ متعلِّقة بالصِّدّيقين والشُّهداء، وقد وقعَتْ موقِعَ الحال[1]؛ لتُبيِّن حالَ السُّموِّ والرِّفعة التي يتَمَتَّعون بها في حَضْرَةِ الله تعالى، ويجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ مبتدأً، وقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْۖ﴾ خبرًا عنهُ، ويكون العطفُ عطفَ جملٍ، فيوقف على ﴿ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾، فيكون انتقالًا من وصف مزيَّة الإيمانِ بالله تعالى ورسله ﷺ إلى وصْفِ مزيَّة فريقٍ منهم استأثر بفضيلةِ الشَّهادة في سبيل اللهِ تَعالى، وهذا التَّعدُّدُ في الإعراب يُبرزُ ثمراتِ نعوتِ الكمالِ التي وُصِفوا بها، كالأجر والنّور المَعْروفَيْنِ بغايةِ الكمالِ وعزَّةِ المنالِ[2].

دلالَةُ التَّعبيرِ بالجارِّ والمجرور ﴿لَهُمْ﴾:

توكيدُ العَطيَّةِ الإلهيَّةِ

في التَّعبير بالجارِّ والمجرور ﴿لَهُمْ﴾ توكيدٌ أنَّ هذه النِّعم من الأجر والنّور مختصَّةٌ بِهِم من عند ربِّهم، وهو المُعْطي الكريم الذي جعلَها لَهُم تفضُّلًا منهُ وتكرُّمًا عليهِم[3].

دلالةُ الإضمارِ في قوله: ﴿لَهُمْ﴾:

في العدولِ إلى الضَّمير إيجازٌ واختِصارٌ

عُبِّر بالإضمار في ﴿لَهُمْ﴾ مِنْ قول الله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْۖ﴾، دون التَّصريح بأسمائهم، فلم يَرِدِ النَّظم القرآنيُّ: (للصِّدّيقين والشُّهداءِ أجرُهُم ونورُهم)؛ إيجازًا واختصارًا، وتجنُّبًا للتَّكرار؛ إذ العَهْدُ بذِكْرِهم قريبٌ، كما أنَّ في الإضمارِ إيماءً إلى أوصافهم التي ذُكِروا بها قبلُ جَعَلَتْ حقائِقَهُم مستقرَّةً في أذهان

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 772.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 210.
(3) الشربيني، السراج المنير: 4/ 210.

النّاسِ، فيكفي الضَّميرُ للإشارةِ إليهِم من غير حاجةٍ إلى إعادةِ التَّصريحِ بأسمائِهِم.

سرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿لَهُمْ﴾ في قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾:

قَضرُ النِّعمة بتقديم متعلّق الخبرِ، فالأجرُ والنّور لَهُم لا لِغَيْرِهم

قُدِّم متعلِّق الخبرِ ﴿لَهُمْ﴾ على المبتدأ في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾؛ تأكيدًا على تميُّز النِّعم وثبوتها لَهُم دونَ سِواهُم، فجاء تقديمُ الخبَر؛ ليبيِّن أنَّ الأجر والنّور خاصّان بهم، لا يتعدّاهم إلى غيرهم، فتصبح النِّعمةُ مفردةً معلومة، جامعةً لكمالِ الجزاء، الذي يُشْعِرُ بالقَصْرِ والخُصوصيَّة[1].

دلالَةُ الإفرادِ في قوله: ﴿أَجْرُهُمْ﴾:

تجسيد وحدة الأجر وكمال الجزاءِ ومَجْدِ التَّفخيم الإلهيّ

أُفرِدَ لفظُ الأجْرِ في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾؛ للدَّلالةِ على عظمَةِ الأجْرِ وكمالِه ووحدَتِه، فهو ليس أجورًا متفرِّقة بل أجرٌ واحد جامِعٌ وكامِل يليق بمقامِ الشُّهداء عند اللّه تعالى، يجمع كلَّ الجزاءاتِ والثَّواب في عطاءٍ إلهيٍّ واحد متماسكٍ، وذلك مُشْعِرٌ بالكمال والتَّفخيم.

دلالةُ الإضافةِ في قوله: ﴿أَجْرُهُمْ﴾:

تجلّي التَّكريم الإلهيّ في إضافةِ الأجر وانتسابه للمَمْدوحينَ

أُضيفَ الأجرُ إليهِم في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾؛ تعبيرًا عن تعظيم وتخصيص، وفيه إشارةٌ إلى انتسابِ الجزاءِ لهُم وحدَهُم، وقد وردَ في موضعٍ آخرَ: ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾، واكتفى هنا بالإضافة دون الوَصْفِ[2]؛ لتكون الإشارةُ ذاتَ أثَرٍ بالغٍ في التَّشريف والتَّكريم.

سِرُّ العطف بالواوِ في قوله: ﴿وَنُورُهُمْ﴾:

تلازمُ الأجرِ والنّورِ في مقام الإنعامِ

عُطِف النّورُ على الأجر بالواو؛ للدَّلالة على الوحدةِ والاتِّصال، ولبيانِ أنَّ النّورَ هو الزّيادة التي زادَهُم اللّهُ تَعالى إيّاها مِن فَضْلِه ورَحْمَتِه، خلافًا للأجر الذي هو استحقاقُ العَمَل، فتصيرُ النِّعمتانِ

(1) الإيجي، جامع البيان: 4/ 265.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 164.

مُتَلازِمَتَيْنِ لا يَفْتَرِقان، ويؤكِّد العطفُ ارْتِباطَهُما الوثيقَ في تكوينِ مَقام أصحابِ النَّعيمِ المُقيم[1].

كما أنَّ التَّعبير بالنّورِ مجازٌ بديعٌ يراد به الهُدى والكرامة والبُشرى التي نالها المؤمنون[2]، ويشمل الضّياء الرّوحيَّ والهداية الرَّبّانيَّة التي أشرق بها قلبُ المؤمنين.

مجازٌ عَنِ الهُدى والكرامة والبشرى والسَّلامةِ

سرُّ الإفراد في قوله: ﴿وَنُورُهُمْ﴾، مع دلالةِ الإضافةِ:

إفرادُ النّور يعودُ إلى أنَّ النّور واحدٌ متجرِّد، وهو الهُدى الذي يجمَع ألوانَ الخير والرَّشاد، فـ (نورُهُم) واحدٌ، وإضافتُه تعظِّم هذا النّورَ بكونِه خاصًّا بهم ومعرِّفًا بهم[3]؛ إيماءً إلى تميُّزهم بهذا الهُدى الجامع لكلِّ نورٍ، فلا يُعدُّ جمعًا متفرِّقًا، بل هوَ نورٌ واحدٌ مستفيضٌ يضيء قلوبَهم، ويهديهم إلى الحقِّ.

هُدًى جامعٌ معرَّفٌ، وتميّزٌ يفيضُ عَلى أهلِ الإيمان

دلالَةُ الجَمْعِ بين الأجر والنّور في قوله: ﴿أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾:

في الجَمْعِ بينَ الأجر والنّور في قول الله تعالى: ﴿أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ توضيحٌ لحكمة إلهيَّةٍ، فالأجر هو المكافأة المستحقَّة المكتسبَةُ بأعمال العبد، أمّا النّور؛ فهو الهِبَةُ الإلهيَّة التي تزيد على الاستحقاقِ، فهو فضْلٌ ورحماتٌ توهَبُ بلا كسْبٍ، فالآية الكريمةُ تَجْمَعُ بين استحقاقِ العمَل، وبين الكرم الإلهيِّ، فتكون المنَّة والفضلُ ملازِمَتَيْنِ للعَبْدِ، ولا سيَّما في النَّوافل التي يُجْزى عليها بأجْرٍ ونورٍ معًا[4].

امتزاجُ الجزاءِ بالمنَّةِ

سرُّ تقديم الأجرِ على النّورِ:

قُدِّمَ الأجرُ على النّور في قول الله سُبحانَهُ: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ الأجر هو استحقاقٌ مكتسَب؛ نتيجةَ أعمالِ العَبْدِ مع تفضُّلِ اللهِ تَعالى في توفيقِهِ للعملِ وقبولِهِ مِنهُ، بخلاف النّور؛

كسبُ العبدِ المستحقُّ ثمَّ المنَّةُ والفضلُ مِن ربِّ العالمينَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 285.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 266.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 398.
(4) إسماعيل حقي، روح البيان: 9/ 368.

فإنَّه محضُ هبةٍ إلهيَّة خارجَةٍ عَن نطاقِ الكَسْب، فالأجرُ يعبِّرُ عن مقابل العمل والطّاعة التي بذلها العبد، أمّا النّور؛ فهو فضلٌ ورحمة مضافَةٌ له، ويُقَدَّم الأجرُ؛ لبيانِ حقِّ الاستحقاق أوَّلًا، ثمَّ يُضاف إليه النّور رمزًا للمنَّة الإلهيَّة التي تلازم العبدَ حيثما كان، فتكون النِّعمةُ كاملةً متكاملةً بينَ استحقاقِ العبد وكرَمِ اللّه تعالى[1].

دلالَةُ التَّعْبير بالجُمْلَةِ الاسميَّة في قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾:

دوامُ الفضلِ الإلهيِّ في دار الجزاءِ

عُبِّر بالجملة الاسميَّة في قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾؛ لإظهار الثُّبوت والدَّوام؛ وذلك يقتضي أنَّ الأجرَ والنّورَ مَمْلوكانِ لَهُم، ثابِتانِ لا يَزولانِ، مُسْتَمِرّان في دار الجزاء، في "أجر جزيل، ونور عظيم يسعى بين أيديهم"[2]، ممّا يعكِسُ دوامَ فضلِ اللّهِ تَعالى عليهم ورسوخ مكانَتِهم عندَهُ، فلا يَنْقَطِعان، أو يتغيّران مع الزَّمانِ.

بلاغَةُ المجازِ بالحَذْفِ في قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾:

أجرهم ونورهم لا يُشاركهم فيه سِواهُم

في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ مجازٌ بالحَذْفِ؛ إذ حُذِفَت لفظةُ (أنفسهم)؛ تيسيرًا للعبارةِ، ممّا يُفهم أنَّ الأجر والنّور مختصّان بهم، وليس لغيرهم، أي: إنَّ لهم أجرَ أنفُسِهم ونورَ أنفُسِهم.[3]

بلاغَةُ المَعْنى في عَوْدِ الضَّمير إلى أقربِ مذكورٍ (الشُّهَداءُ):

خصوصيَّة النِّعمة وارتباطُ الضَّميرِ بالمقامِ

الضَّميرُ في ﴿أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ يعودُ في الأصلِ إلى الصِّدّيقين والشُّهداء معًا، أو إلى الشُّهداء وحدهُم، وفقًا لاختلاف التَّأويلين السّابقين في العطف[4]، فهما في كلا الحالَيْنِ مُعَرَّفان ومخصَّصانِ لَهم، ممّا يُؤكِّد خصوصيَّة النِّعمة وتميُّزَ أصحابِها، ويُبرز الارتباط الوثيق بينَهم وبين جزائِهم الموعودِ.

والضَّمير في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ عائدٌ على

(1) إسماعيل حقي، روح البيان: 9/ 368.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 27/ 175.
(3) مكي القيسي، الهداية: 11/ 7323.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 398.

الشُّهداء[1]، وهو يُفيد تخصيصَ الجزاء والنّور بهم دون غيرهم، ممّا يُبْرِزُ شرَفَ منزلَتِهم وعلوَّ مقامِهم في ميزان الوعد الإلهيِّ؛ إذ إنَّ الأجر والنّور جاءا جزاءينِ على مواقفهم الإيمانيَّة وتضحياتهم في سبيل اللّهِ تَعالى.

خصوصيَّة الأجر والنّور في ميزان الوعد الإلهيِّ

بلاغَةُ التَّشبيهِ البليغِ في الآية:

في قولِ الله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ تشبيهٌ، والتَّقدير: لهم مِثْلُ أجرِهم ونورهم المعروفَيْنِ بغايةِ الكمال وعزَّة المنال، وقد حُذِفَت أداة التَّشبيه؛ للتَّنبيه على شدَّة المماثلة وكمالِها، حتّى بلغَت حَدَّ الاتِّحاد[2].

بيانُ شدَّة المماثلةِ وكمالِها

دلالة التَّعبير بالواوِ في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

الواو في قول اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ استئنافيَّة[3]، فالسّياق كان في بيانِ حال المؤمنين ومراتبهم ونعيمهم، فلمّا انتهى الغرض من ذلك؛ جاء الاستئنافُ ليَفْتَتِحَ به كلامًا مستقلًّا عن حال الكافرين، فيكونَ تمييزًا بين الطّائفتين في الذِّكر، كما تَمايَزا في المصير، وهذه الواوُ تفيد الانتقالَ مِن مقامٍ إلى مقامٍ.

الانتقال من حالِ المؤمنين إلى الكافرين يجسّد تبايُنَ المَصيرَيْنِ

ويجوزُ أن تكون الواوُ عاطفةً، والجملة بعدها معطوفة على ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ﴾، ويكون الوصل بين الجملتينِ لِما بينَهما من التَّوسُّط بين الكمالين؛ وذلك لاتِّحادهما خبرًا، ولِما بينَهما من التَّناسُبِ في اللَّفْظِ والمعنى، فأمّا في اللَّفْظِ؛ فلاشتراكهما في الاسميَّةِ، وتصديرِهما بالاسمِ الموصولِ، وكونِ صلَتِهما فعلًا ماضيًا مسندًا إلى واو الجماعَةِ، وأمّا في المعنى؛ فلِما بينَهُما من التَّضادِّ في بيانِ مآلِ الفريقَيْنِ.

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 217.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 210.
(3) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 516.

سِرُّ التَّعبير بالموصولِ وصِلَتِهِ (الَّذينَ كَفَروا) دون (الكافرون):

كـفـرهُـم وتَكْذيبُهُم علَّةٌ في استِحقاقِ المصيرِ وصُحبَةِ الجحيمِ

جاءَ التَّعبير بالموصولِ وصِلَتِهِ في قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، بدلًا من (والكافرون) لإظهار السَّبب والعلّيَّة؛ إذ إنَّ الموصولَ وصِلَتَهُ يُبيِّن أنَّ هؤلاء هُم الذين جَمَعوا بين الكُفْر وتكذيبِ الآيات، فيربط الصِّفاتِ بعضَها ببعضٍ، ويوَضِّح طبيعةَ حالِهِم بتَمامِها، كما أنَّ الموصولَ يُهَيِّئُ للجملة التّاليةِ التي تُبَيِّن جزاءَهُم، وهو كونُهُم أصحابَ الجحيم بِما كان مِن اتِّصافهم بالكُفْرِ والتَّكْذيبِ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالكُفْرِ دونَ الإشراكِ:

الكُفْرُ أعـمُّ مِنَ الشِّرْكِ وأشمَلُ

استُعمِل الكُفرُ دونَ الإشراكِ في قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ﴾؛ لشُموليَّة معناهُ وعمومه، فالكفرُ يشمَلُ الجُحودَ والنَّفيَ والإنكارَ لكلِّ ما أنزل اللهُ ﷻ، كما يشمَلُ الكُفْرَ بالنِّفاقِ والكُفْرَ بالشِّرْكِ، بخلاف الشِّرك؛ فإنَّهُ خاصٌّ بإشراك غير اللهِ تَعالى فيما هو من خصائصِ الله تعالى، فيكونُ التَّعبير بـ ﴿كَفَرُواْ﴾ دون (أشركوا)؛ ليَعُمَّ جميعَ أهل الكُفْرِ، سواءٌ أكان كفرُهُم جحودًا واستكبارًا، أم نفاقًا، ونحو ذلك.

سِرُّ عدَمِ ذِكْرِ متعلِّقِ الكُفْرِ، كَما ذُكِرَ معَ التَّكذيبِ:

الإيـمـاءُ إلى الجُحودِ المُطْلَقِ والـتَّـكْـذيـب بالآياتِ جَميعِها

لَم يُذْكَر متعلِّق الكُفْر على خلاف ما ذُكِر مع التَّكذيبِ في قول الله سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾؛ لكونِ الكفرِ أوسَعَ دائرةً، وأعمقَ دلالةً، فهو جحودٌ مُطْلَقٌ يشمَلُ إنكارَ الوحدانيَّة، وسائرَ ما يجبُ الإيمانُ به[2]، فلا يُقيَّد بمفعولٍ معيَّن؛ ليبقى شاملًا كلَّ ما يُكفر به، أمّا التَّكذيب؛ فمقصودٌ بهِ هنا خصوصُ الآيات، فذُكِرَ متعلِّقه؛ لبيان أنَّهم جحدوا جميعَ الآياتِ على اختلافِ أنواعِها؛ إشارةً إلى كُفْرِهم بالرُّسل كافَّةً وما جاؤوا بهِ[3].

(1) الشوكانيّ، فتح القدير: 5/ 208.
(2) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 407.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 184.

دلالة التَّعبير بفِعْلَي الكُفْرِ والتَّكْذيب ماضيَيْنِ:

استُعمِلت صيغةُ المُضيِّ في قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾؛ لأنَّ الكفر والتَّكذيب قد صدر منهم وتحقَّق بالفعلِ، لا على وجهِ الاحتمال، بل على وجه الثُّبوت والاستقرارِ؛ إيذانًا بأنَّهم تمكَّنوا من هاتينِ الصِّفتين، ورسخَت فيهِم.

تحقُّق الكفرِ واستقرارُ التَّكذيب وثبوتُهما

سِرُّ تَقْديمِ الكُفْر على التَّكذيبِ:

قُدِّمَ الكُفْر على التَّكذيب في قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾؛ لأنَّ الكفر أصلُ كلِّ انحراف، فهو الجحودُ الكلّيُّ لله تعالى ووحدانيَّته، ثمَّ يترتَّب عليه التَّكذيب بآياته وحُجَجه وبَراهينه[1]، فجيء بالكفر أوَّلًا؛ لأنَّه الأعمُّ والأصل، ولأنَّ مَن لَم يَرْسَخ في قلبه الإيمانُ باللهِ تَعالى ابتداءً؛ كان تكذيبه بآياتهِ نتيجةً حتميَّة لذلكَ الجحودِ.

الكُفْرُ أصلٌ والتَّكذيبُ فرعٌ، والمقدَّم أساسٌ في كلِّ انحرافٍ عن الإيمانِ

دلالة الجمعِ بينَ الكُفْرِ والتَّكذيب في قولهِ: ﴿كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ﴾:

جُمِعَ بين الكفر والتَّكذيبِ في قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ﴾؛ ليُجْمَعَ لهُم بينَ أصلِ الجُحود وأقبحِ مظاهرِه، فاجتَمَعَ فيهم الوصفانِ القَبيحان، وهُما الكُفْرُ بذاتِ اللهِ تَعالى ووحدانيَّته، والتَّكذيبُ بآياته وصفاته الكُبْرى وحُجَجِه الباهرة، فصار كُفْرُهم كفرًا صريحًا بيِّنًا يملأ ظاهرَهم وباطِنَهم، قلبًا وسرًّا وروحًا، فاستَحقّوا بذلك أن يكونوا أصحابَ جحيمِ البُعد والطَّرد واللَّعن[2].

كُفْرٌ مُضاعَفٌ وعذابٌ مستحَقٌّ؛ من إنكارٍ للوحدانيَّة إلى تكذيبِ البراهين الرَّبّانيَّة

دلالَةُ التَّعبيرِ بالتَّكذيبِ عَلى صيغَةِ التَّفْعيلِ:

استُعمِلت صيغةُ التَّفعيلِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾؛ للدَّلالة على المبالغَةِ في الفِعْلِ والتَّوغُّل فيهِ، وفيه كَشْفٌ عن حالٍ بلغَ فيهِ التَّكذيبُ مبلَغَ الإصرار والعناد، وقد أُضيفَتِ

تكذيبٌ مستحكِمٌ وكُفْرٌ مستغرِقٌ حينَ يبلغُ العِنادُ ذروتَه

(1) المراغي، تفسير المراغي: 27/ 175.
(2) إسماعيل حقي، روح البيان: 9/ 369.

الآياتُ بصيغَةِ الجَمْعِ المعرَّف، وهي صيغةٌ تفيدُ العمومَ والاستغراقَ؛ فتَشْمَلُ جميعَ آيات اللّهِ تَعالى المتنوِّعة في مظاهِرها، فهذا المكذِّب بها قَد جاوز الحدَّ، فصارَ إفراطهُ في التَّكذيب عنوانًا على تَغَلغُلِ الكُفْرِ في نَفْسِه[1].

سِرُّ تعديَةِ فعلِ التَّكذيبِ بالباءِ:

إيغالٌ في الإنكارِ والتَّكذيبِ بالرُّسلِ والبيِّناتِ

عُدّيَ فعل التَّكذيب بالباءِ معَ أنَّ فعلَ التَّكذيبِ قد يُعَدّى بنَفْسِه: أنَّ الباءَ ههنا تفيدُ التَّوكيدَ واللُّزوم؛ لِتَدُلَّ على تَشَبُّثِهم بالتَّكذيب، وتَغَلْغُلِه في نُفوسِهم، لا مجرَّد إنكار عارض، وقد أُريد بالكُفْر هنا الكفرُ باللّهِ تَعالى، في مقابلةِ الإيمان به، وأمّا تكذيبُ الآياتِ؛ فالمقصودُ به تكذيبُ ما جاءَت به الرُّسل مِن الآياتِ الإلهيَّة، وتكذيبها هو في حقيقَتِه تكذيبٌ للرُّسل أنفُسِهم، فهو إذًا في مقابلةِ التَّصديق بهِم، وبِما جاؤوا به مِنَ الحَقِّ المُبين[2].

دلالةُ الباءِ في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾:

شدَّةُ مُلازَمَتِهم للتَّكذيبِ

الباء في ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ من قول الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ دالَّةٌ على الإلصاقِ، وفي ذلك دلالةٌ على لزومِهم هذا التَّكذيبَ وشدَّة ملابسَتِهم لَهُ، فلم يكُن تكذيبًا عارضًا، بل كان ديدَنًا لَهُم وعادةً.

سِرُّ التَّعبير بالآياتِ جَمْعًا:

لفظٌ جامِعٌ مستغرق دلائل القدرة والوحدانية

اختيرَ لفظُ الآياتِ جمعًا مضافًا في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ لإفادَةِ العموم والاستغراق، أي: كذَّبوا بجميع آيات اللّهِ تَعالى على اختلاف أنواعها[3]، وانتقى البيانُ القرآنيُّ لفظ الآياتِ دون البيِّنات مثلًا؛ لأنَّ الآياتِ لفظٌ أوسَعُ

(1) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 462.
(2) إسماعيل حقي، روح البيان: 9/ 369.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 249.

دلالَةً، وأعمُّ شمولًا؛ إذِ الآيَةُ تُطلَقُ على كلِّ ما يدلُّ عَلى قدرةِ اللهِ تَعالى ووحدانيَّته، من معجزاتٍ حسّيَّة، وبراهينَ عقليَّةٍ، وشرائعَ هاديَةٍ.

دلالَةُ إضافَةِ الآياتِ إلى ضميرِ العظمَةِ:

الإيـمـاءُ إلى عظمةِ الآياتِ

أُضيفَت الآياتِ إلى ضمير العظمة (نا) في ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾، مِنْ قول اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾؛ وذلك تعظيمًا لشَأْنِ تلك الآيات، وتشريفًا لها؛ إذْ نُسِبَت مباشرة إلى المتكلِّم المعظِّم نفْسَهُ ﷻ، فازدادت مهابةً وجلالة، وكأنَّ كلَّ آية منها تحملُ خَتْمَ الرُّبوبيَّة وعلامةَ القُدْرةِ الإلهيَّة، فتكذيبُها تكذيبٌ لصاحِبِها سبحانَهُ، سواءٌ أكان ذلك في السِّرِّ أم في العلن، أو كان بتعامُلٍ معَ الآيات تعامُلَ المكذِّب المستخفِّ بها[1].

دلالَةُ التَّعبير باسمِ الإشارةِ:

إشارةٌ إلى البُعْد والـطَّـرد من رحمةِ الرَّحيمِ

جاء التَّعبيرُ باسم الإشارة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾، في قولِ اللهِ تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ للدَّلالةِ على بُعْدِهم عَن كلِّ خيرٍ[2]، وتخصيصُهُم بالبُعْد عَن الرَّحمة والزُّلفى، فكأنَّهم أُشيرَ إليهم من مكانٍ سَحيقٍ لبُعْدِ دَرَجَتِهم، وامتيازِهم بسوءِ المَصير، فهُم مَخصوصونَ بالخِذلان والطَّرد عَن مقاماتِ الإيمان والنَّجاةِ.

دلالَةُ التَّعبيرِ بـ﴿أَصْحَـٰبُ﴾ دون (أهل):

في لفظِ الصُّحْبَةِ مَعْنى المـلازَمَةِ وطولِ الملابسَةِ

عُبِّر بالأصحاب دون الأهلِ في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ لِما تدلُّ عليهِ مادَّةُ الصُّحبة مِن معنى الملازمَةِ، فأصحابُ الجحيم هُنا هم المُلازمونَ لها على وجهِ الخلودِ، فلا يخرجونَ مِنها أبدَ الآبدينَ، بخلاف لفظِ الأهلِ فإنَّها تدلُّ على انتسابٍ لأمرٍ، من غير أن يقتضيَ ذلك لزومًا وطولَ ملابسَةٍ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 286.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 286.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالاسمِ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾:

تصويرُ دَوامِ العَذابِ

دلالَةُ التَّعبيرِ بالاسم ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ دون الفِعلِ (صحبوا)، من قولِ الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أنَّ الاسم يدلُّ على صفةٍ دائمَةٍ ومُستَقِرَّةٍ، وهي الملازمة والخلودُ في الجحيم[1]، بخلافِ الفِعلِ (صحبوا) فإنَّهُ يُفيدُ حَدَثًا ماضيًا أو مُؤقَّتًا دونَ تأكيدِ الدَّوام، فالأصحابُ هُنا: همُ الملازمون للجَحيم بلا انقِطاعٍ، بخلافِ غَيرِهِم ممَّن قد يَدخُلونَ النّار، ولكن لا على وجهِ الخلودِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بأصحابِ الجَحيمِ دونَ أصحابِ السَّعير:

في لَفظِ الجَحيم إشارةٌ إلى عظمَةِ النّار وتأجُّجها، وفي لفظِ السَّعير دلالَةٌ على شِدَّة اشتِعالِها

اختيرَ لفظُ الجحيم دون السَّعير في قول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾؛ لأنَّ المذكورَ قبلُ لم يُقتصَرْ فيه على ذِكرِ الكُفرِ، بل ضُمَّ إليه التَّكذيبُ، ولذا كان الأنسب التَّعبير بلفظٍ يدلُّ على عِظَمِ النّار وتأجُّجِها، وهو الجَحيمُ، بخلافِ السَّعيرِ فإنَّها تدلُّ على شدَّة الاشتعالِ والاتِّقادِ، وهذا أقربُ لوصفِ الحركةِ والهيَجانِ.

بلاغَةُ القَصْرِ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾:

تخصيصُ الخُلودِ وقَصْرُه بِمَن استحقَّ الجحيمَ دون سواهُم

في تعريفِ طَرَفَي الإسنادِ[2]، في قولِهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أسلوبُ قَصرٍ، وفيه تخصيصُ الخلودِ في النّار بالكفّار وحدَهُم، فالتَّركيبُ يُبيِّن حَصْرَ هذه الصِّفة[3] - وهي الصُّحْبَة الدّائمةُ للجَحيم - واختصاصُها بهم دونَ غيرهم، ممّا يدلُّ على أنَّهم مخصوصون بالعذاب الأبديِّ، وغيرُهم من أهل المعاصي دونَ الكُفرِ متوَعَّدونَ بالنّار، ولو دخلوها لم يكن دخولهم إيّاها على وجهِ الخلودِ.

بلاغَةُ المُقابلَةِ في الآيةِ:

بين قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾، وقوله تعالى:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 286، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 400.
(2) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 462.
(3) الشربيني، السراج المنير: 4/ 210.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾[1] مقابلة؛ إذ بعدَ ذِكْرِ حالِ المؤمنين وأهلِ الفَضْلِ والكرامة؛ انتُقِلَ إلى ذكر الكافرين المكذِّبين؛ ليُبَيِّن الفرقَ الجليَّ بينَهُم، فخصَّ الكافرين بأنَّهم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾، أي: سكانُ النّار، ومستحقو العذابِ[2].

بين الإيمان والتَّكذيب مقابلَةٌ تكشِفُ استحقاقَ الجنَّةِ واستحقاقَ النّارِ

بَلاغَةُ الاحتِباكِ في الآيَةِ:

في قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ احتباكٌ، وهو المسمّى الحذفَ المقابَلِيَّ أو حذفَ التَّقابُلِ، ووجه ذلك: أنَّ ذِكْرَ الصِّديقيَّة أوَّلًا دليلٌ على حذفِ أضدادِها ثانيًا، وذكرَ الجحيم ثانيًا دليلٌ على النَّعيم أوَّلًا[3]، ويكون المعنى: والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصِّدّيقون والشهداء عند ربِّهم لهم أجرهم ونورهم، وأولئك أصحاب النَّعيم، والذين كفروا، وكذَّبوا بآياتنا أولئك هم الكذَبَةُ والفُجّارُ، عليهم وِزْرُهم، ويُحْجَب عنهم النّورُ، وأولئك أصحاب الجحيم، وسرُّ هذا الحذفِ المقابَلِيِّ أنَّ الأوَّلَ أدخَلُ في الكرامة، والآخَر أبلغُ في الإهانة[4].

تَلْميحٌ بالنَّعيم بذِكْرِ الجحيمِ، وإشارةٌ إلى الكرامةِ بذِكْرِ أضدادِها

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأجْر والثَّواب والجزاء:

تدلُّ مادَّةُ الأجرِ - الهمزةُ والجيم والرّاء - على مَعنَيَين: الكِراء على العمل، وجَبْرُ العَظْم الكَسير، ويُجْمَعُ بينَهُما بأنَّ أجرة العاملِ بمنزلة الشَّيءِ الذي تُجبَرُ بها حالُهُ فيما أصابَهُ من كَدٍّ في عملِهِ[5].

الأجرُ أخصُّ من الثَّواب والجزاءِ من جهة اختِصاصِه بالخَير

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 249.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 266.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 286.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 286.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجر).

وأمّا الثَّواب؛ فدالٌّ على العَود والرُّجوعِ، والمرادُ به: ما يعود على الإنسان من جَزاء عملِه[1].

وأمّا الجزاءُ؛ فأصلُه: الغَناءُ والكفايةُ، ويُرادُ به: الكفاية مِنَ المُقابلة إن خيرًا؛ فخير، وإن شرًّا؛ فشرٌّ[2].

والفَرْقُ بينَها[3]: أنَّ الثَّوابَ يُستعمَل في الجزاء بالخَيْرِ غالبًا، واستعمالُهُ في الشَّرِّ أقلُّ، وأمّا الجزاءُ؛ فهو المقابلَةُ على الخَيرِ بالثَّواب وعلى الشَّرِّ بالعقاب، وأمّا الأجرُ؛ فلا يُستعمَل إلّا في النَّفع دون الضَّرِّ، ويتضمَّن مَعْنى المعاوضةِ.

فالأجرُ أخصُّ مِنَ الثَّواب والجزاءِ، من جهةِ اختصاصِه بالخير، بخلاف الثَّواب والجزاء فَهُما أعمُّ؛ لجريانِهما في الخير والشَّرِّ.

والثَّواب أخصُّ مِنَ الأجر والجزاء مِن جهة أنَّهُ لا يُستعمَل في المنافعِ المادّيَّة أو الدُّنيويَّة، بخلاف الأجْرِ والجزاء؛ فإنَّهما يَقَعانِ على المنافع الدُّنيَويَّة والمنافع الأُخرويَّة.

النّور والضَّوء:

ذهبَ بعضُ أهْلِ العِلمِ بالعربيَّة إلى أنَّ النّور والضّياء بمَعْنًى واحدٍ[4]، وقد فسَّر الخَليلُ بن أحمدَ النّورَ بالضّياء أيضًا[5]، ويحتملُ ذلك منهُ أنَّه يَرى تَرادُفَهُما، أو أنَّه أرادَ التَّقريبَ، على عادةِ أصْحابِ المُعجماتِ في ذلكَ.

والتَّحقيقُ أنَّ بينَهُما فرقًا، وذلك أنَّ أصلَ النّورِ هو ضوْءُ كلِّ شيءٍ، وهو ضِدُّ الظُّلْمَةِ، بخلاف الضّياء فَهو إفراطُ الإنارةِ، ولذا اختير الضّياء في التَّعبير عنِ الشَّمس، في نحوِ قولِ اللّه تَعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾[6] [يونس: 5]، فيكونُ الضياءُ على هذا أعظمَ وأبلغَ، ومعلومٌ أنَّ الشَّمْسَ أعظمُ نورًا مِنَ القَمَرِ[7]، مع ما هو معروفٌ مِنْ أنَّ نورَهُ مُسْتَمَدٌّ مِنْ نورِها.

---

(1) القاضي عياض، مشارق الأنوار: (ثوب).

(2) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن: (جزا).

(3) محمّد محمَّد داود، معجم الفروق الدّلالية في القرآن الكريم، ص: 46 - 48، ومحمّد ياس الدُّوري، دقائق الفروق اللُّغويَّة في البيان القرآنيِّ، ص: 164 - 166.

(4) ابن السكّيت، إصلاح المنطق، ص: 98، وابن أبي الحديد، الفلك الدائر على المثل السائر، مطبوع بآخر المثل السائر لابن الأثير: 4/ 233.

(5) الخليل بن أحمد، العين: (نور).

(6) الزمخشري، الكشاف: 1/ 73.

(7) ابن الملقِّن، المعين على تَفَهُّم الأربعين، ص: 282.

وثمَّة فرقٌ آخرُ بينَهما، وهو أنَّ الضّياءَ: ما كان مِن ذاتِ الشَّيء المُضيء، بخلاف النّورِ: ما كانَ مُستَفادًا مِن غَيرِهِ[1]، وهذا الفرقُ هو بالنَّظر إلى خُصوصِ الشَّمْسِ والقَمَرِ على النَّحوِ الوارِدِ في الآيَةِ المُتَقَدِّمِ ذكرُها.

الضّياءُ: ضَوْءٌ وحَرارَةٌ، والنّورُ: ضَوْءٌ بِلا حَرارَةٍ

وأصحُّ ما قيل في الفرق بَيْنَهُما: أنَّ الضّياء ضَوْءٌ وحرارةٌ، مِثْلُ ضَوْءِ الشَّمس والسِّراج، والنّورَ ضوءٌ بِلا حرارَةٍ، كَنورِ القَمَرِ[2]، وهذا الذي تَتَظِمُ به النُّصوصُ القرآنيَّةُ.

أمّا قوَّةُ أحدهما في مقابِلِ الآخَرِ؛ فالغالِبُ في الاستِعمالِ أن يَكونَ الضّياءُ أقوَى، ولكنَّه ليس بِلازِمٍ مُطَّرِدٍ.

الصُّحبة والرِّفقة:

لازموا الجحيمَ حتّى صارت كأنَّها صاحِبَتُهُم وقَرينَتُهم التي لا تُفارقهُم أبدًا

لفظ الصّاحبِ في أصلِهِ يدلُّ على الملازمة والاقتران الذي لا ينفكُّ، سواءٌ أكان ذلك بالبدنِ أم بالعنايةِ والهمَّة[3]، واختير هذا اللَّفظُ في قولِهِ تَعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾؛ للإيماء إلى هؤلاءِ كأنَّهم قد لَزموا الجحيمَ حتّى صارت مقرًّا دائمًا لهم لا يفارقونه أبدًا، ثمَّ غدت الجَحيم كأنَّها صاحَبَتُهُم، وهُم أصحابُها، ولم يأتِ البيانُ القرآنيُّ بلفظِ الرِّفقة؛ لأنَّها مشتقَّة من الرِّفق، وأصل الرِّفق في اللُّغة النَّفع واللِّين، ورفيق الرَّجل في السَّفر سُمّي رفيقًا لانتفاعه بصحبته، ولمرافقته في السَّير إلى جانبه بحيث يَلي مرافقه[4]، وهذا المعنى الإيجابيُّ غير مرادٍ في سياق الآية التي تُظْهِر شدَّة الملازمة للعذابِ لا لِرِفْقٍ أو نَفْعٍ.

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 17/ 104093.
(2) ابن رجب، جامع العلوم والحكم: 2/ 24 - 25.
(3) الراغب، المفردات: (صحب).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 259.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الستون،
سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الستون، سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 60 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-66-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 60 : المجلد الستون، سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-66-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5294607 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"